أيكرهون صدّام حسين أَم العرب والمسلمين؟

رهاب العرب والحرب على العراق

غادة الكرمي

في الوقت الذي تتواصل فيه بلا هوادةٍ التحضيراتُ الغربيّةُ للحرب على العراق، بدأ أكثر العرب يَشْعرون أنّ ما يجري ليس هجومًا على العراق وحده بل على الشعب العربيّ نفسه. والعرب الذين يَقعون خارج هذا الشعور الإجماعيّ هم الذين يعتقدون أنّ أيّ شيء أفضلُ من نظام صدّام حسين، وأنّ الولايات المتحدة وحدها تستطيع إزاحته. والحقّ أنّه من الصعب أن نفسِّر التصميمَ الأميركيّ على خوض هذه الحرب مهما حدث. والتحضيراتُ العسكريّة الهائلة في الخليج تتواصل برغم تدخُّل الأمم المتحدة، وبرغم المعارضة الرسميّة والشعبيّة، وبرغم براعة العراقيّين من جهة وتجاوبهم من جهة ثانية. اللافت أنّ الولايات المتّحدة تُبدي استعدادًا لممارسة الديبلوماسيّة إزاء حالةٍ أشدَّ خطورةً بكثير، هي حالة كوريا الشماليّة، وهو ما لا يُمْكن التفكير فيه في حالة العراق. وقد أَعْلن ريتشارد بيرل، المستشارُ الأعلى للإدارة الأميركيّة، أنّ الولايات المتحدة لا تَحْتاج إلى تفويض من الأمم المتحدة من أجل شنّ الحرب على العراق، وأنّ المفتّشين عن الأسلحة العراقيّة يضيِّعون وقتهم!

إنّ الدوافع الحقيقيّة للهجوم المخطَّط له على العراق، بغضّ النظر عن حشدٍ كبيرٍ من التصريحات والتوقُّعات والتحليلات العلنيّة، مازالت مربكةً وغامضة. فعددٌ كبيرٌ من العرب يرون فيه مزيجًا من المؤامرات الشريرة للسيطرة على نفطهم، والاستعمارِ الجديدِ لبلدانهم، ومكائدِ إسرائيل التسلُّطيّة. صحيح أنّ كثيرًا من هذا التفكير يُرَدّ في الغرب إلَى هَجْس العرب بنظريّات المؤامرة، ولكنْ هناك من دون شكّ ثيمةٌ معاديةٌ للعرب تَسْري في مجمل السّجال الدائر حول العراق. وهذه الثيمة هي من الانتشار بحيث تبدو للوهلة الأولى غيرَ قابلةٍ للتصديق، ولكنّ الواقع هو أنّ هناك عنصريّةً عميقةً وغيرَ واعية تَصْبغ كلَّ بعدٍ من أبعاد السلوك والتصرُّفات الغربيّة إزاء المسألة العراقيّة ـ ومن ثمّ إزاء العرب عامةً. فثمّة تماثلاتٌ مذهلة بين الوضع إزاء العراق اليوم من جهة، وأزمةِ السويس عام ١٩٥٦ والحربِ العربيّة ـ الإسرائيليّة عام ١٩٦٧ من جهة ثانية.

كنتُ في بريطانيا آنذاك، وأَذْكر أنّ جمال عبد الناصر كان هو الوغدَ الأبرز في أذهان البريطانيّين، وكانوا يُشبِّهونه دائمًا بهتلر ويَعدّونه شيطانًا والعدوَّ رقم ١ للغرب. وكان العرب بأجمعهم مستهدفين بفجاجةٍ في كاريكاتوراتٍ وأوصافٍ عنصريّة واضحة. كانوا يصوَّرون على أنّهم جبناء، وكذّابون، لا يَنْبغي الوثوقُ بهم قطّ. في السبعينيّات فاقمتْ من هذه التنميطات صورةُ العرب بوصفهم إرهابيِّين (كما في حالة الفلسطينيِّين) أو مقامرين أغنياء وفاسدين أو أزيارَ نساء (كما في حالة عرب الخليج). اليوم لم تعد هذه النزعةُ المعاديةُ للعرب بهذا الشكل العلنيّ مقبولةً في بريطانيا، ولكنّها لم تندثرْ، بل راحت تأخذ أشكالاً أكثرَ رهافةً. إذ ثمّة اليوم وغدٌ جديدٌ تَنْبغي مهاجمتُه، هو صدّام حسين. ولمّا كان متَّهمًا بجرائم كثيرة ضدّ شعبه وضدّ جارته الكويت فقد صار هو البديلَ المثاليّ للهجوم مِنْ قبل الساخطين، والسُذّج سياسيّاً، والعنصريّين المعادين للعرب بشكل خاصّ. وإذ لم يعد ممكنًا لهؤلاء أن يعبِّروا عن احتقارهم للعرب بوصفهم دون الغربيِّين منزلةً، فقد بات بمقدورهم الآن أن يعبِّروا عن هذا الاحتقار من خلال هجومهم على شخص صدّام. وهذه الهواية الجديدة أُجيزتْ رسميّاً منذ عام ١٩٩١ حين كفّ صدّام حسين عن أن يكون مفيدًا للولايات المتحدة، فغدا بلدُه العراقُ «هدفًا مشروعًا.»

وُلد النسقُ المعادي لصدّام حسين أثناء التحضيرات لحرب الخليج الثانية عام ١٩٩١. ومنذ ذلك الوقت راحت أميركا وحلفاؤها الغربيّون يصوِّرون الصراعَ بشكلٍ عبثيّ وكأنّه حرب ضدّ رجل واحد هو صدّام حسين، الذي يبدو واقفًا في فراغ لا يَظْهر فيه ٢٢ مليون عراقيّ على الإطلاق. بل إنّ اسم الحملة العسكريّة ضدّ العراق عامَ ١٩٩١، أيْ «عاصفة الصحراء،» ساعدتْ في تعزيز هذا المفهوم عن الأرض الخالية من سكّانها. والمضحك أنّ الزعيم العراقيّ يُشار إليها دومًا باسمه الأوّل، لا تحبُّبًا بالطبع وإنّما للحطّ من منزلته؛ إذ ليس ثمّة رئيسٌ آخر لدولةٍ ذاتِ سيادة يُشار إليه من قِبل الغرب على ذلك النحو (صحيح أنّ العرب يسمّونه «صدّام» هم أيضًا، ولكنّ الأسباب مختلفة: فهذا الاسم نادر من بين الأسماء الشخصيّة، ولذا يُمْكن أن يكون اسمَ عائلة. وهذا لا يتضمّن أيَّ قلّةِ احترام، كما هي العادة في الغرب). علاوةً على أنّ اللغة التي تُستعمل في الحديث عنه تعزِّز قلّةَ الاحترام هذه: «ما فعلناه هو أنّنا أَعَدْنا صدّامًا بقوّة إلى قفصه،» «هو يَعْلم ما يجب أن يَفْعله» (طوني بلير ١٩٩٨، و٢٠٠٢)؛ «صدّام في قنينة» (نائب الرئيس الأميركيّ ديك تشيْني، ٢٠٠١). والحال أنّ النُّعوت الملْصَقة بالزعيم العراقيّ سامّةٌ وحادّةٌ إلى درجة أبلسته. لقد اختفى من النقاش، منذ زمن طويل، أيُّ إشارة

إلى مَنْ يكون الرئيسُ العراقيّ حقّاً: رئيسًا محليّاً ثانويّاً - وإنْ يكن وحشيّاً وقاسيًا - وديكتاتورًا من العالم الثالث على غرار آخرين كثيرين من قبله.

لا غرابةَ أن يتمّ في هذه السيناريو تجاهُلُ الشعب العراقيّ، وهم الضحايا الحقيقيّون للعقوبات الغربيّة الوحشيّة ضدّ صدّام حسين. فلا ذِكْرَ لأحاسيسهم ومعاناتهم ورغباتهم، إلاّ حين يكون مفيدًا من الناحية السياسيّة تبنّي الغرب لهذه الفئة العراقيّة أو تلك كشيعة جنوبيّ العراق والأكراد. وبموجب قرار مجلس الأمن رقم ١٤٤١ سيكون جائزًا تسفيرُ العلماء العراقيّين و«عائلاتهم المباشرة» إلى خارج العراق للتحقيق معهم، كما لو كانوا أشياء بلا حياة. وهذا يتجاهل حقوقَ ورغباتِ الأشخاص المعنيِّين، ويتجاهل أيضًا حقيقةً هامةً وهي أنّ العائلات العربيّة عائلاتٌ ممتدّة تقليديّاً: فأفراد العائلة المباشرة ليسوا إلاّ جزءًا من كلٍّ أضخمَ بكثير، وكلّهم مهمّون واحدُهم بالنسبة إلى الآخر، ولذا لن يقبل أيُّ عراقيّ أن يَخْضع لأيّ إجراء قد يسبّبُ خطرًا على عائلته الممتدّة. غير أنّ الولايات المتحدة تفكّر في إصدار مذكّراتِ استدعاءٍ تطالب بوجودهم خارج العراق.

بالنسبة إلى العرب فإنّ القرار ١٤٤١ غير المسبوق في قساوته يستدعي - في أقلّ تقدير - صورةَ معلّم مدرسة ساديّ من منظمة الأمم المتحدة يَجْلد تلميذًا عراقيّاً ضلَّ سواءَ السبيل. وفي الوقت نفسه بُذلتْ جهود غربيّة حثيثة لتلميع المجموعات العراقيّة المعارضة - مع أنّ هذه المجموعات معروفة بتشتُّتها وتذبذبها وانقسامها - من دون أدنى اهتمام بشرعيّتها داخل العراق أو بقبول الشعب العراقيّ لها. لكنّ ذلك لم يَمْنع الولايات المتحدة من أن تَدْعم مؤتمرًا كبيرًا للمعارضة العراقيّة عُقد في لندن في كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٢ من أجل تفصيل استراتيجيّة مستقبليّة لعراقِ ما بعد الحرب. وقد تحدّثتْ تقاريرُ من داخل هذا المؤتمر عن شجارات ومنافسات تافهة بين المجموعات الخمسين أو ما يَقْرب من ذلك العدد، في حين كان المبعوثُ الأميركيُّ هو الذي يأخذ «القرارات الفعليّة» في لقاءات خاصة على هامش المؤتمر.

وبالمثل، فإنّ التخطيط للحرب على العراق وما بعدَها غيرُ معنيّ - لقساوته - بتبعاتها البشريّة. فالدول العربيّة التي اعتُبرتْ ضروريّة لشنّ الحرب أُجبرتْ دونما رحمة على الإذعان للخطة الأميركيّة، بغضّ النظر عن آثارها في الشعوب والحكومات العربيّة. وهكذا دُعي الرئيسُ السوريّ إلى زيارة رسميّة هي الأُولى من نوعها إلى بريطانيا، وهدفُها مزدوج: ترغيب وترهيب. وجاءت رشوةُ المشاعر العربيّة على شكل محطة «سوا،» وهي محطّة إذاعيّة أميركيّة باللغة العربيّة أُنشئتْ مؤخّرًا وتَسْتهدف جذبَ الناشئة العرب إلى وجهة النظر الأميركيّة.

وفي لندن استضاف طوني بلير مؤتمرًا عن فلسطين هذا الشهر (كانون الثاني) قبل العدوان المفترض على العراق. ولكنْ أيّاً ما كانت قيمةُ هذا العمل، فإنّ المرء لَيَشتبهُ في أنّه رشوةٌ أخرى للعرب ومناورةٌ لضمان موافقتهم على الحرب ضدّ العراق. وهناك حديث علنيّ عن حكْم أميركيّ انتقاليّ في العراق بعد السقوط المتوقَّع للنظام الحاليّ وبعد فرض قيادةٍ يُمكن أن تُختار من تلك الأحزاب العراقيّة المعارضة التي لا يمكن الاعتمادُ عليها. ومع اشتداد التحضيرات للعدوان على هذا البلد العربيّ تواصِل الولاياتُ المتحدة دعمَها السافر لعدوّ العرب الأكبر، إسرائيل، من دون اعتبار لحساسيّاتهم أو لمعاناة الفلسطينيِّين.

قد يُقال إنّ هذا كلّه لا يعدو أن يكون دليلاً على ما تفعله دولٌ لدول أخرى عند الحرب. ولكنْ يَصْعب للعرب أن يروْا في ذلك إلاّ تأبيدًا للاستعمار الغربيّ في منطقتهم. وفي أساس هذه التحضيرات تجاهُلٌ عنصريّ لحاجات وآمالِ الشعوب الأصليّة التي لم توجدْ في رأي المستعمِرين إلاّ بهدف استغلالهم والتلاعُبِ بهم متى شاءوا. فاعتُبرتْ حياتُهم بلا قيمة، وحضاراتُهم دونيّة. والحقّ أنّ تاريخ العراق المبكّر تحت الحكْم البريطانيّ في عشرينيّات القرن الآفل، حيث سُحِقت المعارضةُ الشعبيّة دون هوادة بالقوّة العسكريّة، واستُخدِمَ ضدَّها غازُ الخردل، لَهُوَ تذكيرٌ حيٌّ بذلك. ففي مراسلة رسميّة عام ١٩٢١ كَتَبَ ونستون تشرشل، وكان آنذاك وزيرًا للاستعمار، ما يلي: «أؤيّد بشدّة استخدامَ الغاز السامّ على القبائل غيرِ المتحضِّرة.» وبعد فترة أضاف أنّ الغاز الذي استُخدم ضدّ المتمرّدين العراقيّين ذو «آثار معنويّة ممتازة!» كما أنّ خلق إسرائيل عامَ ١٩٤٨ خلافًا لإرادة الشعب صاحبِ الأرض مثالٌ عريقٌ آخر. وكان وعدُ بلفور عامَ ١٩١٧، الذي عَبَّد الطريقَ إلى استعمار فلسطين، قد حَصَرَ الغالبيّةَ العربيّةَ في خانة «الجاليات غير اليهوديّة.» وهذا الاحتقار للشعب الأصليّ هو الذي هيّأ المسرحَ للاحتلال اللاحق الذي قام به اليهودُ الأوروبيّون لفلسطين.

إنّ تصميم الولايات المتحدة الحاليّ على شنّ حربٍ مدمِّرة ومن دون أيّ استفزاز مسبّق، وإنّ تلاعباتها ومكائدَها السياسيّة، لتُذكِّرُ بذلك الإرث الكولونياليّ القديم. فالحال أنّ العنصريّة المبطَّنة في جميع تلك الأقوال والأفعال تَنْبع من ثقافة معادية للعرب في الولايات المتحدة، قويتْ بعد ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٠، وترسّختْ مع مضايقة العرب هناك وسجنِهم دونما محاكمة في السجون الأميركيّة. بل حين لبّى المئاتُ من العرب دعوةَ السلطات الأميركيّة إلى تقديم أنفسهم للاستجواب، عمدتْ هذه السلطاتُ إلى توقيف كثير منهم فورًا وإلى اعتقالهم بلا محاكمة.

هذا وقد أَنتجتْ هوليوود أفلامًا عديدةً معاديةً للعرب بشكل صريح، وأبرزُها «أكاذيب صحيحة» (١٩٩٤) الذي يصوِّر مجرمين إرهابيِّين عربًا يَقصفون مدنًا أميركيّة. وهناك ما لا يُحصى من البرامج الإعلاميّة والصّوَر المتحرّكة التي تصوِّر العربَ بطرق عنصريّة سافرة، ولكنّها مع ذلك لا تَخْضع للعقاب.

لذا نظرًا لغرام العرب بالغرب، ولاسيّما بالولايات المتحدة، من المهمّ أن نكون على وعي بهذا المناخ المعادي للعرب (بملحظ أنّ جزءًا من هذا العداء يتقاطع مع العداء للمسلمين أيضًا). فهذا المناخ تحديدًا هو الذي يَسْمح بقتل الفلسطينيِّين بمعدّل ثلاثة أشخاص كلَّ يوم في أرضهم، فيُذكر ذلك في خبر ثانويّ، أو لا يُذكر قطّ في نشرات الأخبار الغربيّة. وهذا المناخ هو الذي سيجعل شنَّ حربٍ على العراق أمرًا ممكنًا، بل ومقبولاً (في نهاية المطاف) من قِبل قادة الغرب وشعوبه.

لندن

غادة الكرمي
كاتبة وأكاديميّة فلسطينيّة، تعيش في لندن. صدرت مذكّراتها مؤخّرًا وعنوانها **بحثًا عن فاطمة**، عن منشورات ڤيرسو.